﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـط بين أحكام الغنائم، وأحـكـام الأَسْـرى، وكـلاهـمـا مشمولٌ بحكمة الإسلام ورحمته

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ ما يتعلَّقُ بشأن الأسرى مِن أخذ الفداءِ منهم، وكيف شقَّ عليهم أخذُ أموالِهم؛ جاءَت هذه الآيةُ لتستكمل الحديثَ عنهم بترغيبهم في الإسلام، وذلك بخطاب رسولِ اللّه ﷺ لهم مباشرة[1] لاستمالة قلوبِهم، مُستَعطِفًا لَهُم مُرغِّبًا في الإسلام؛ بأنْ يَقولَ لَهُم كلمةً رحيمةً هاديةً، فقال سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾: الهَمزَةُ والسّينُ والرّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى الحَبسِ والإمساكِ[3]، ومِنهُ: الأسيرُ وهو المسجونُ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان: 8]، ويُجمَعُ على: أُسَراءَ، وأُسارَى، وأَسارَى، وأَسْرَى[4].

وأصلُ الأَسرِ: الشَّدُّ بِالقَيدِ، وبذلكَ سُمِّي الأَسيرُ أسيرًا، ثُمَّ استُعمِلَ الأسيرُ في كُلِّ مَأخوذٍ، ولو لم يَكُنْ مَشدودًا بالقَيدِ[5].

2) ﴿قُلُوبِكُمۡ﴾: القافُ واللّامُ والباءُ تدورُ تصاريفُها على

(1) رضا، تفسير المنار: 10/87.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/333، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3197.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أسر).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم: (أسر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أسر).

مَعنَيَيْنِ؛ أحدهما: خالِصُ الشَّيءِ وشريفُهُ، والآخر: ردُّ الشَّيء من جهةٍ إلى أُخرى[1].

والقُلوبُ جمعُ قَلبٍ، وقلبُ كلِّ شيءٍ: أفضلُهُ وأَخلَصُهُ، ومِنهُ سُمِّي قلبُ الإنسانِ قلبًا[2]، وتقول العرَبُ: جِئتُكَ بهذا الأمرِ قَلبًا، أي: مَحضًا لا يَشوبُه شيءٌ[3].

وذكَرَ بعضُ أهلِ العربيَّةِ أنَّ القَلبَ سُمِّي قلبًا؛ لِتَقَلُّبِهِ وكثرةِ تغيُّرِه[4]، ومِنهُ قولُ الشّاعر:

ما سُمِّيَ القَلبُ إلا مِن تَقَلُّبِهِ *** والرّأيُ يُصرَفُ والأَهواءُ أَطوارُ[5]

ويَرِدُ القَلبُ في القرآنِ الكريم مُرادًا بِهِ القوَّةُ الباطنةُ، كما في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق:37]، وهذا الإطلاقُ هو الغالِبُ، وكما في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾، ويُعبَّر بالقلب عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرّوح والعلم والشّجاعة وغير ذلك[6].

3) ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾: الغَينُ والفاءُ والرّاء تدلُّ أكثرُ تصاريفِها على معنى السَّترِ، ومِنهُ: الغَفرُ؛ وهو السَّترُ[7]، وقال الرّاغب: "الغَفرُ: إلباسُ ما يَصونُه عن الدَّنسِ"[8]، وهو راجعٌ إلى معنى السَّترِ، والمغفرةُ شَرعًا: سَترُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عَنهُ[9]، وهذا هوَ المَعنَى المُرادُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّه الكَريم: يا أيُّها النَّبيُّ قُلۡ لِمَن

أحكام مخاطبة الأسرى، وبيان أنَّ الكلمة الرّحيمة الهادية، روح دعوةِ الإسلامِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (قلب).
(3) الخليل، العين: (قلب).
(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/373.
(5) هو عند الأزهريّ في تهذيب اللُّغة: (قلب) بلا نسبةٍ.
(6) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(8) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(9) ابن عُثيمين، القول المفيد: 1/85.

أسرتُموهُم في بَدرٍ: لا تَأسَوا على ما أُخِذَ مِنكُم مِنَ الفِداء، إن يَعلَمِ اللّهُ تعالى في قلوبِكُم خيرًا وإسلامًا؛ يُؤتِكُم أفضلَ ممّا أُخِذَ مِنكُم مِنَ المالِ، ويصفَحْ لكم عَمّا اقترفتُموهُ مِن كُفرِكُم باللّهِ تعالى وقتالِكُم نبيَّهُ ﷺ، واللّهُ ﷻ غفورٌ لذُنوبِ عبادِهِ؛ إذا تابوا، رحيمٌ بِهِم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فَصلِ سياقِ الآيةِ عَمّا قَبلَهُ:

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ لِمَا شأنه أن يُسألَ عنه؛ فكأنَّ الآيةَ كانت بمنزلةِ الجوابِ عمّا يردُ في شأن الأسرى.

تطييبُ خواطرِ الأسرى، من رحمةِ الإسلامِ في معاملةِ الخصوم

دلالةُ النِّداءِ بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

المقصودُ منه أن يجمعَ النّبيُّ ﷺ قلبَه وعقلَه في خطابه لأسرى بدرٍ بأمرٍ مُتعلِّقٍ بحالِ سرائرِ بعضِ الأَسرَى، بعد أن كانَ الخطابُ مُتعلِّقًا بالتَّحريضِ على قتالِ المُشركينَ، وما يتبَعُ ذلكَ مِن أحكامٍ[2].

الإشارةُ إلى استحضارِ القلبِ والعقلِ عند الخطاب

وقد دلَّ هذا النِّداء بهذه الصّيغةِ الّتي اشتملَت على كثيرٍ من عناصر التّوكيد؛ على أنَّ اللّه ﷻ يدعو رسولَه الكريمَ صلوات اللّه عليه وسلامه لتحمُّلِ أمورٍ ذاتِ شأنٍ وبالٍ عمومًا، وفي شأن أسرى بدرٍ خصوصًا، ولا سيَّما أنّ الحديثَ عنهم هو من مَكنوناتِ النُّفوسِ وجزيلِ وَعدِ اللّهِ ﷻ لِمَن في قلبِهِ الخَيرُ، فإنَّ هذا المذكورَ لَهُ شأنٌ خَطيرٌ وجليلٌ.

سرُّ اختصاصِ النِّداءِ بالحرف (يا):

بيان عظمةِ اللهِ ﷻ، وَعظمةِ خِطابِهِ

اختصّ النداءُ بـ (يا) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ دون غيرها من حروف النِّداء؛ لأنّها أندى، ولا يُنادى اسمُ اللّه إلّا بها، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف غيرُها، ولأنّها في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ اللّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/72، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

ﷻ لرُسُلِه وأنبيائِه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخلوقينَ، فحريٌّ أَن يكونَ بأداةِ النِّداءِ للبعيدِ.

وفي التَّعبيرِ بأداةِ النِّداءِ للبَعيدِ نِكاتٌ: **أُولاها**: بُعدُ ما بَينَ الخالِقِ والمَخلوقِ مِنَ المَكانةِ، **ثانيها**: أنَّه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ سُبحانَهُ، وهو مُقتَضٍ أعلى العلوِّ وأبعدَهُ، **ثالثها**: أنّها تُفيدُ التّوكيدَ المُؤذِنَ بأنّ الخطابَ الّذي يتلوها معنيٌّ به جدًّا.

سِرُّ (أيّ) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

جاءَ النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وفي ذَلكَ ضَربٌ مِن تَقويةِ النِّداءِ، وَوَجهُ ذلكَ: أنَّ (أيّ) لا يُفهَمُ المرادُ بها إلّا باسمٍ بعَدَها يُزيلُ غُموضَها، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وذلكَ ضربٌ مِن ضُروبِ التَّوكيدِ.

الانتقالُ مِنَ الإبهامِ إلى الإيضاحِ والبيانِ

وفي اقترانِ (أيّ) بـ(ها) التَّنبيه: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأَصلِ يُرادُ به التَّنبيهُ، فاجتمَعَ في هذا النِّداءِ الخاصِّ تَنبيهانِ؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ مضمونِهِ وكبيرِ أهمّيَّتِهِ.

سِرُّ نِداءِ اللهِ تعالى نَبيَّهُ بالوَصفِ:

مِن طرائقِ القُرآنِ الكَريمِ في نداءِ النَّبيِّ ﷺ أن يُنادَى بالوَصفِ لا بالاسمِ، فلَم يَرِد في النَّظمِ القرآنيِّ قطُّ: (يا مُحَمَّدُ ﷺ)، وإنّما يَرِدُ: ﴿*يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41، 67]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وذلكَ لبيانِ رفعَةِ قَدرِ النَّبيِّ ﷺ عِندَ ربِّهِ سُبحانَهُ[1]، وفيهِ أيضًا تَعليمُ العبادِ الأدبَ معَهُ ﷺ في المناداة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾، وأيضًا في تلقّي أوامر التّشريع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

عَظَمَةُ قَدرِ النَّبيِّ ﷺ عِندَ رَبِّهِ ﷻ

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بوَصفِ النُّبوّة:

في النِّداءِ بِوَصفِ النُّبوَّةِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 371.

إبرازُ منزلة النّبيّ ﷺ الرّفيعة

فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ دون الرّسالة، مع تحقيقِ الوصفَين لِمقصدِ بَيانِ منزلةِ النَّبيِّ ﷺ الرَّفيعَةِ؛ لكَونِ لفظِ النُّبوَّةِ مُشعِرًا بأنَّه ﷺ مُنبَّأٌ مِنَ اللّهِ سبحانَه، وفي هذا إيماءٌ إلى التَّرغيبِ في التَّلقّي مِنه ﷺ؛ إذ إنَّ اللّهَ سُبحانَهُ قد أنبأَهُ بكلِّ جليلٍ مِنَ المعاني[1] يُزكّي أُمّتَه مع رفعِ مقدارِه وإتمامِ أنوارِه.

وممّا يُذكَرُ أيضًا أنّ التّعبيرَ بالنّبوّة يأتي في مقامِ ذِكرِ الأحداثِ حين يكون الأمرُ مُتعلِّقًا بالأسوةِ السّلوكيّة، أمّا إذا كان مُتعلِّقًا بتشريعٍ؛ فالمناسبُ ذِكرُ الرّسالة.

وممّا يؤكّدُ ذلك أنّ النّداءَ بالرّسالة ورد في قوله سبحانَه: ﴿*يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41، 67] في سورةِ المائدةِ، والمقامُ فيها مقامُ التّشريعات عمومًا، وما يتعلَّقُ بأهل الكتابِ خصوصًا.

وأيضًا في سرِّ التّعبيرِ بالنّبوّة في هذا الموضع الإعلامُ بوضعِ حدٍّ فاصلٍ في التّعامل بينه ﷺ وبين المشركين؛ فالقرآن يريدُ هنا ترسيخَ علوِّ قدرِه بالوحي الشّريف الّذي أنبأَه اللّهُ به؛ فيتعاملون معه على أنّه محمّدٌ النّبيُّ بدلًا من محمّد القُرشيّ.

دلالةُ العُدولِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

النّبيُّ مُحمَّدٌ ﷺ منفردٌ بالنُّبوَّةِ، وَقتَ نُزولِ القُرآنِ الكريمِ

عدلَ عنِ المخاطبة بالإضافة بأن يقولَ: (يا نبيَّ اللّه) إلى المُخاطَبة بالوصف المُعرَّف بـ (أل) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لِمَا تدلُّ عليه (أل) من استغراقِ خصائصِ وصفِ النّبوّة؛ فهو النّبيُّ الكاملُ، ولذلك اختُلِفَ في معنى اللّام في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾؛ فمنهم مَن قال: اللّام في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ للعَهدِ العِلميِّ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ.

ويجوزُ أن تكونَ اللّام لِلعَهدِ الحضوريِّ؛ أي: النَّبيُّ الحاضِرُ وَقتَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/333.

نزولِ هذا الخِطابِ، ومِنَ المعلومِ أَن لا نَبيَّ في الأرضِ حيٌّ وقتَ نُزولِ هذا الخِطاب إلّا محمَّدٌ ﷺ.

والوَجهانِ متآيلانِ.

دلالةُ تكرارِ النّداءِ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

تهيئتُه ﷺ، لتحمُّل الصُّعوبات في قتاله مع المشركين

النَّاظرُ في الرُّبُع الأخيرِ من سورة الأنفال يجدُ تكرارَ النّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ الآية - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، وكلُّها في سياق الحديثِ عن مواجهة الرّسول ﷺ للمشركين، وما تحملُه هذه المواجهةُ من صعوباتٍ يحتاج النّبيُّ ﷺ فيها إلى رفعِ روحِه المعنويّةِ بكفاية الله له في مواجهة المشركين، وهذه الكفايةُ تجعلُه ﷺ على يقينٍ بنصر الله؛ لأنّ الله كافيه؛ لذلك أرادَ أن يُشرِّفَ المؤمنين بنيل شرفِ النّصر بتحريضهم على قتال المشركين، وذلك برفعِ روحِهم المعنويّة؛ بأنّ الإيمانَ يجعلُ الواحدَ منهم بعشرةٍ منَ الكفّار، وكان فضلُ الله على الرّسول والمؤمنين ظاهرًا؛ بأن هُزِمَ المشركون في بدرٍ، فقُتِلَ منهم سبعون، وأُسِرَ منهم سبعون؛ فكان هذا النّداءُ الأخيرُ نداءَ المنتصر، حيث قال اللهُ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قولَ ترحُّم وتعطُّفٍ عليهم لترغيبهم في الإسلام، وكلُّ ذلك ولفظ النُّبوَّة تاجٌ على رأسه ﷺ يجعلُه عالي القدر عالي المكانة، وفيه بشارةٌ بنصره ﷺ ومَن معه مِنَ المؤمنين؛ لأنّ النّبوّةَ تعني العلوَّ والارتفاعَ، وهذا ما حقّقه اللهُ لرسوله في غزوة بدرٍ.

سِرُّ خطاب الأسرى بواسِطَةِ النَّبيِّ الأكرم:

اختيارُ مشركي مكّةَ أن يكونوا في زمرةِ الأعداءِ دون الأولياء

وُجّه الخطابُ للأسرى عن طريق نَبيِّه ﷺ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، دونَ أن يوجِّهَ إليهم الخطابَ أصالةً؛ للتّنبيهِ على عدَمِ أهليَّتِهِم لخطابِ الله

تعالى بإبعادهم أنفسَهم عنِ الإيمان به وبرسوله ﷺ، وبما اختاروا لأنفسِهم الكَونَ مع أعدائِهِ دونَ الكَونِ مع أوليائِهِ[1].

وفيه إشارةٌ بأنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ هو المُبلِّغُ عن ربّه، وفي هذا إشارةٌ إلى إعلان نُبوَّتِه منَ اللّه؛ فهو النّبيُّ ﷺ آمنتُم به أم لم تؤمنوا.

دِلالةُ الأَمرِ في ﴿قُل﴾:

فعلُ الأَمرِ ﴿قُل﴾ من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ جارٍ على أصلِهِ من إرادَةِ طلبِ الفعلِ على وجهِ الإلزامِ؛ لِكَونِ الأَمرِ صادِرًا منَ اللّه ﷻ إلى نَبيِّه المأمورِ أصالةً بالبلاغِ عنه سُبحانَهُ.

اللّهُ ﷻ هو الآمِرُ، ونبيُّهُ ﷺ هو المُبَلِّغ الأمين

وفيه إشارةٌ إلى أنّ أصلَ بلاغِ الدّعوة بالقول؛ لأنّه يشتملُ على الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ والجدالِ بالّتي هي أحسن، وما يأتي بعد ذلك من وسائلِ الدّعوة فهو تابعٌ له.

بَراعَةُ الاستِعارَةِ في جَعْلِ الأسرى في أيديهم:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ الأسرَى الّذينَ هُم في وثاقِ المُسلمينَ واستيلائِهِم بالشَّيءِ الّذي في أَيديهِم، وهُم قابِضونَ عليهِ[2]، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وفي ذَلكَ مِن بلاغةِ التَّصويرِ وإبرازِ المعاني في قالَبِ المحسوسِ ما يجعَلُهُ مُستَقِرًّا في النَّفسِ.

إبرازُ المعاني في قوالبِ المَحسوساتِ، أعلَقُ بالذِّهنِ وأقرَبُ إلى الفَهمِ

سرُّ التَّعبير بـ ﴿مِّنَ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بـ ﴿مِّنَ﴾ الّتي تفيدُ العمومَ والشّمولَ وعدمَ الاختصاص؛ لِتصدُقَ على كلِّ الأسرى الّذين وقعوا في قبضة يدِ المسلمين؛ بخلاف (الّذي)

بيان العموم والشّمول في الاسم الموصول

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/333.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/36، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

فإنها لا تؤدّي هذا العموم، بل تنصرفُ إلى شخصٍ مُعيّن أو إلى مجموعةٍ معيّنة، وهذا غيرُ مُراد.

دلالةُ إيثارِ الظَّرفيّة بحرف ﴿فِيٓ﴾:

التّمكّن التّامّ في الجملة

آثرَ التّعبيرَ بالظّرفيّة ﴿فِيٓ﴾ الّتي تدلُّ على تمكُّنِ المظروف في الظّرف، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هؤلاء الأسرى المشركين قد صاروا في قبضةِ المؤمنين وتحت تصرُّفهم؛ فلا يخرجون عن مُرادهم؛ لأنّهم في قبضة أيديهم، وتمكّنوا منهم تمكُّن الظّرف منَ المظروف، بخلاف الباء فلا تؤدّي هذا المعنى؛ لأنّها قد تكون بمعنى السّببيَّة أو الإلصاقِ، وليس هذا هو المُراد.

وممّا يؤكّدُ ذلك (اللّام) في قوله: ﴿لِّمَن﴾؛ فإنّها تدلُّ على التّأكيد.

سِرُّ العُدولِ في ﴿أَيۡدِيكُم﴾:

النَّبيُّ ﷺ هو القائدُ، وأُمَّتُهُ تَبَعٌ لَه

ورَدَ التَّعبيرُ بـ ﴿أَيۡدِيكُم﴾ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ مع أنّ مُقتَضَى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لِمَن في يَدَيكَ)؛ لتقدُّم ذِكرِ ﴿قُل﴾ الّذي يدلُّ على المفرد، وإنَّما جُمِعَت باعتبارِ تَعَدُّدِ المالِكينَ[1]، وللإيماءِ إلى أنَّ الأصلَ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه خطابٌ لأُمَّتِه تبعًا، ونظيرُهُ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق: 1].

دِلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾:

بيان أثَرِ مَعاني الحُروفِ في إبرازِ حَقائِقِ القُرآنِ الكَريمِ

(مِنْ) - في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ - بيانيَّةٌ؛ لتقدُّم الاسم الموصول (مَنْ)، وهوَ مُبهَمٌ يفتقِرُ إلى بيانٍ، فجاءَ هذا البيانُ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(الأسرى) في القراءات القرآنيّة:

النّاظرُ في آيات القرآنِ الكريم يجدُ أنّه استعملَ الجمعَ ﴿أَسۡرَىٰ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

الأَســـرَى مـنْ لَـــم يُـشـدَّ عَليهمُ الوَثاقُ، والأُسَـارى مـنْ شُـدَّ عـليـهـمُ الوَثاقُ

في قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، وفي الآية الّتي معنا: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، و﴿أُسَرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَرَىٰ﴾، وهذه المواضع رُوِيَت بأكثر من قراءة، تدورُ حولَ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ و﴿أُسَرَىٰ﴾؛ فموضعُ سورة البقرة قرأه حمزة ﴿أَسۡرَىٰ﴾ بغير ألفٍ، وباقي القرّاء قرؤوا ﴿أُسَرَىٰ﴾ بالألف وضمّ الهمزة، وفي سورة الأنفال وردَ الخلافُ في قوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، حيث قرأَ أبو جعفر ﴿أُسَرَىٰ﴾ بضمّ الهمزة وفتح السّين وألفٍ بعدها، وفي قوله: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قرأ أبو عمرٍ وأبو جعفر (من الأُسارى)، وباقي القرّاء ﴿أَسۡرَىٰ﴾ مع أنّهما من مادّة (أسر) الّتي تدلُّ على الحبس والإمساك[1].

وعلى هذا يردُ السّؤالُ في وجه الفرق بين ﴿أَسۡرَىٰ﴾ و﴿أُسَرَىٰ﴾ ؟

النّاظر في كتب اللّغةِ يجدُ أنّها تشيرُ إلى أنّ الأسيرَ يُجمَعُ على (الأَسرى)، و(الأَسارى)، و(الأُسارى) جمع الجمع، ولا يزيدون على ذلك.

بخلاف استعمالِ القرآنِ الكريمِ فإنّه فرَّقَ بينهما مراعاةً للوصف أو للحالة الّتي يكونُ عليها الأسير؛ لأنّ حالتَه تدورُ بين وصفين: محكوم عليه بالأسر أو في قبضة مَن أسَرَه؛ لأنّ (أسير) على وزن (فعيل)، جمْعُهُ على (فَعْلَى) نحو: (قتيل) و(قَتلَى)، وأصلُ ذلك إنّما يكون لما كان بمعنى مفعول؛ كالقتيل بمعنى المقتول، فصار في حكم الإنفاذ؛ لأنّه لمّا أُصيبَ بالأسر صار كالجريح والقتيل؛ لذلك يُطلَقُ لفظُ الأسرى على الّذين في يد أعدائهم.

أمَّا (أُسارى) على وزن (فُعالى)؛ فقد كَثُرَ استعمالُها في معنى الضّعف والتّعب، نحو: كُسالى وسُكارى، وفي هذا توصيفٌ لحالة

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 218/2 - 277.

الأسرى الموثَقين في القَيد، وقد أصابهم الضّعفُ والإعياءُ، ولذلك يجدُ النّاظر في مَوضعِ سورةِ البقرة تأكيدًا لذلك، حيث عبّر عنهم بقوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ﴾؛ فقوله: ﴿يَأْتُوكُمْ﴾ دليلٌ على أنّهم ليسوا في يد أعدائهم، بل أتوا قومَهم في حالةٍ من الضّعف والإعياءِ، بخلاف كلمة ﴿أَسَرَىٰ﴾ فتدلُّ على أنّهم في يد أعدائِهم، وفي قبضةِ مَن استولى عليهم، وهنا توصيفٌ لحالة أسرى مشركي مكّةَ الّذين كانوا في يدِ النّبيِّ ﷺ وأصحابِه.

والمدُّ في (الأُسَارَى) يومئ إلى شدَّةِ الأَسرِ أكثَرَ من لفظِ (الأسرَى).

وعلى هذا فالأسرى وصفٌ يُطلَقُ على الّذين في يد أعدائهم عمومًا، والأُسارى وصفٌ يُطلَقُ على الّذين في القيد، وبذلك تتكاملُ القراءتان في وصف حالةِ الأسيرِ حُكمًا وواقعًا[1].

سِرُّ تَعليقِ الشَّرطِ بـ(إنْ):

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميع المَعلوماتِ، من أوضح المُسَلَّمَات

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ(إنْ) في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ مع أنَّ الأصلَ في (إنْ) دلالَتُها على الشَّكِّ بوقوعِ مدخولِها، ومِنَ المعلومِ مِنَ الدّين بالضَّرورَةِ أنَّ عِلمَ اللهِ سُبحانَهُ بكلِّ شيءٍ قطعيٌّ مُتحقَّق، وإنَّما اختيرَ حرفُ الشَّرطِ (إنْ) باعتبار متعلَّقِ العِلمِ لا باعتبارِ العِلمِ ذاتِه، والمَعنَى: أنَّ ثبوتَ الخَيرِ في قُلوبِ هؤلاءِ الأسرَى لَيسَ مقطوعًا بِهِ، وإن كانَ اللهُ سُبحانَهُ عالِمًا بِهِم حالًا ومآلًا.

دلالَةُ عبارة ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾:

عِلمُ اللهِ تعالى، يُبديه ولا يَبتديه، وهو المحيط بكلّ شيء علمًا

يجوزُ أن يُرادَ بالعِلمِ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ ظهورُ عِلمِهِ للنّاس[2]، وهوَ العِلمُ الّذي يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعقابُ، وذلك لأنَّ العِلمَ ضَربانِ:

(1) ابن أبي مريم، المُوضِح في وجوه القراءات وعِلَلِها: 1/288، ومحمّد الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 298 - 299، ومحمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 464 - 465.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/356.

أحدُهُما: عِلمٌ بالشَّيء قَبلَ وُجودِهِ.

والآخرُ: عِلمٌ بالشَّيء بعدَ وُجودِهِ[1].

وكلا العِلْمَين ثابتٌ للّه تعالى، إلّا أنَّ الأوَّلَ - وهو العِلمُ السَّابق - لا يَتَرَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ؛ حتَّى يُختَبَرَ النّاس، ويُمتَحَنوا، وأمّا العِلمُ بالشَّيءِ بعدَ وجودِهِ فهذا هوَ العِلمُ الّذي يترتَّبُ عليهِ ثوابٌ وعقابٌ، وهو المرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾، وفي هذا دليلٌ على إقامة الحُجّة عليهم، وأنّ ما يحكمُ اللّهُ به على عباده هو دليلٌ على علمه الأزليّ.

دلالةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ (الله):

عَظَمَةُ عِلمِ اللهِ سُبحانَهُ، وإحاطَتُهُ بجميعِ العلم وأدقّه وأشمله

عُرِّفَ المُسنَدُ إليهِ بالعَلَميَّةِ (اللّه) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾؛ للإيماء إلى عَظَمَةِ علمِ اللّهِ سُبحانَهُ لإحاطتِهِ بجميعِ المعلوماتِ، مَهما دقَّتْ، كالعِلمِ بما في مكنوناتِ القُلوبِ؛ لأنّ لفظَ الجلالةِ يجمعُ كلَّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ[2].

دلالةُ إسنادِ الخيرِ في قلوب الأسرى:

ادّعاء الإيمان باللّسان، لا يكفي لحصولِ الخيرِ للإنسان

أسندَ الخيرَ في قوله تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إلى علم اللّه؛ للإشارة إلى أنّ ادّعاء الإيمانِ باللّسانِ فقط لا يكفلُ لهم الحصولَ على الخير، ولا يُوصِّلُهم إلى مغفرة اللّه عمومًا، وفي شأن أسرى بدر خصوصًا؛ فعليهم أن يُخلِصوا للّه في إيمانهم حتّى ينالوا عظيمَ فضلِه وثوابِه.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾:

تمكُّن الخير من القلب، مفتاحٌ للولوج إلى حقائق الإيمان

آثرَ التّعبيرَ بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ دون غيرها منَ الحروف، نحو: (مِن) كأن يقول: (من قلوبكم)؛ لأنّ الظّرفيّةَ هي الأبلغُ في هذا السّياق، حيثُ دلَّت على تمكُّنِ علمِ اللّهِ بما في

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن (منَ الحجرات إلى الحديد)، ص: 424.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/333.

قلوب الأسرى؛ فأصبحَت قلوبُهم مظروفةً يحيطُ علمُ اللّه بها من كلِّ الجوانب، بخلاف (مِن) فلا تؤدّي ذلك؛ لأنّها قد تكون بمعنى الابتداء، والمعنى: ابتداء ما في قلوبكم، وهذا غيرُ مُراد.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿قُلُوبِكُمْ﴾:

القلوبُ محلُّ نظرِ الله تعالى، ومَؤئلُ الإيمان واليقين

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿قُلُوبِكُمْ﴾ دون غيرها كالصّدور والأفئدة؛ لأنّ القلوبَ هي مناطُ التّكليف ومحلُّ المؤاخذة، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ إلى غير ذلك منَ الآيات الّتي تؤكّد على أنّ القلبَ هو محلُّ القوّة العاقلةِ والمساءلة، بخلاف الصّدور والأفئدة. وللإشارة أيضًا إلى استحقاق الجزاءِ على ما في القلب؛ لأنّه موضعُ الإيمان، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، ولمّا كان المرادُ هنا (إن يعلمِ اللّهُ وجودَ الإيمان في قلوب الأسرى)؛ عَبَّر بالقلوب.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ (الخير) عنِ (الإيمان):

الخيرُ عطاء الله الدُّنيويُّ والأخرويّ، وهو منه تعالى ممدود غير محدود

قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بالخير مع أنّ المرادَ به الإيمان؛ لأنّ الخيرَ هو الثّمرة النّاتجةُ عنِ الإيمان، ولأنّ الكلَّ يرغبُ فيه بحكم الفطرةِ السَّويّة، ولأنّه يجمعُ الكمالاتِ في الدّنيا وفي الآخرة؛ ففي الدّنيا يُطلَقُ على العقلِ والعدلِ والفضلِ، والشّيء النّافع، ويُطلَقُ على المال أيضًا، وهذا واضحٌ في كثيرٍ من آيات القرآنِ قال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، وفي الآخرة يُطلَقُ على الفلاح والفوز بالجنّة، ولمّا كان لفظُ الخيرِ بهذه المثابة المادّيَّةِ والمعنويَّة؛ آثر التّعبيرَ به، وضدُّه الشّرُّ، وكأنّ القرآنَ يوجّههم إلى أنّ ما هم عليه من قتالِ رسولِ اللّه ﷺ، ومنَ البقاءِ على الكفر هو الشّرُّ كلُّه؛ فعليهم أن يرغبوا عنه إلى الإيمان باللّه ورسوله؛ لأنّه الخيرُ كلُّه[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (خير).

سِرُّ تَنكيرِ لفظ ﴿خَيۡرًا﴾:

كرمُ الله لا حدَّ له، كما لا حدّ لكماله

نُكِّرَ ﴿خَيۡرًا﴾ من قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا﴾؛ للدِّلالَةِ على التَّقليلِ؛ أي: إنْ يعلَمِ اللهُ في قلوبِكُم شيئًا مِن تقواهُ الّتي تَحمِلُ على الإيمانِ الّذي هوَ رأسُ كلِّ خيرٍ، ولو كان قليلًا؛ لأنّ القليلَ مِن تقواه يقبلُه اللهُ، ويضاعفُ ثوابَه، ولذلك فيه إشارةٌ إلى عظيمِ فضلِ اللهِ ﷻ حيثُ يجزي على العملِ اليسيرِ بالثَّوابِ الجليلِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاء في: ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾:

عطاءُ الله ليس كعطاء أحدٍ، فهو المعطي بلا حدٍّ

آثرَ التّعبيرَ بالإيتاء دون الإعطاء في قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا﴾؛ للدّلالة على وجود فرقٍ بين عطاءِ البشرِ وعطاءِ ربِّ البشرِ؛ فعطاءُ البشرِ محدودٌ وقليلٌ، وقد يكون عن كراهيةٍ وعدمِ حبٍّ، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: 34]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: 29] بخلاف عطاء ربِّ البشرِ؛ فهو كثيرٌ لا حدَّ له، ونفعُه عظيمٌ في الدّنيا والآخرة، ويعطيه لخَلْقه حبًّا لا عن كراهية، لكلِّ ذلك عبَّر عنه بالإيتاء ليَحُثَّهم على الدّخول في الإسلام لينالوا الخيرَ كلَّه، وهذا ما وقع مع العبّاس بن عبد المطلب، كما تذكرُ بعضُ الرّوايات أنّه لمّا دفعَ فداءَه وفداءَ أولادِ أخويه أعطاه الله خيرًا ممّا أُخِذَ منه في الدّنيا أضعافًا مُضاعفةً، وفي الآخرة يرجو غفرانَ ذنبِه وعفوَ ربِّه.

دلالةُ تكرارِ لفظِ ﴿خَيۡرًا﴾:

تكرار لفظ (خيرًا) في السّياق، ليشملَ خيرَي الدّنيا والآخرة

كرّرَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿خَيۡرًا﴾ مع سَبْق ذِكْره في قوله تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا﴾؛ لاختلاف المعنى في كلٍّ منهما؛ ففي الأولَى يُرادُ به الإيمان، وفي الثّانية يُطلَقُ على الخير المادّيِّ والمعنويّ؛ فيُطلَقُ على المال في الدّنيا وعلى الجنّة في الآخرة، يؤكّدُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/334.

ذلك ما جاء عن العبّاس ﷺ قال: "عوّضني الله عن أربعين أوقيّة أربعين عبدًا في الغزوات، وأعطاني زمزمَ، وما أحسبُ أنّ لي بها جميعَ مالي"[1]، ولم يقفِ الأمرُ عند العبّاس بل شملَ جميعَ مَن آمنَ بعد ذلك، وغزا مع النّبيِّ ﷺ؛ فأصابَ منَ الخير، وآتاه اللّهُ تعالى مع ذلك الإيمانَ والإخلاصَ، ومَن قُتِلَ منهم في الجهاد أُعطِي الشّهادةَ وفضلها عظيم[2].

سرُّ التّعبيرِ بعبارة ﴿أُخِذَ مِنكُمْ﴾:

الأخـذُ حَـوْزُ الشّيء وتحصيله، وهو تناولٌ بقوّة

آثرَ التّعبيرَ بالأخذ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ دون غيره؛ لأنّ الأخذَ معناه حَوْزُ الشّيء وتحصيله، وفي هذا إشارةٌ إلى قوّة المسلمين وتمكُّنهم من هؤلاء الأسرى؛ لأنّهم صاروا في قبضةِ أيديهم، وفيه ترهيبٌ للمشركين، وإضعافٌ للرُّوح المعنويّةِ عندهم الّتي تؤدّي بطبيعة الحال إلى إضعافِ القوّة البدنيّة، وفيه بشارةٌ للمسلمين بالغَلَبَة على المشركين.

سرُّ التّعبير بالماضي ﴿أُخِذَ مِنكُمْ﴾:

تأكيد دلالة الماضي على الوقوعِ والتّحقُّقِ

عبّرَ بالماضي للدّلالة على تحقُّق وقوعِ الأخذِ من أسرى بدر سواءٌ كان الأخذ ماديًّا أو معنويًّا.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾:

الفديةُ لا تكون مِن جميع الأسرى

عبّرَ بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ للدّلالة على التّبعيض، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هذا الأخذَ يمكنُ أن يكونَ من بعض الأسرى الّذين يمتلكون إعطاءَ الفدية، وأمّا الّذين لا يمتلكون الفديةَ ولا أعطى قومُهم عنهم، كان المنُّ عليهم منَ الله ورسوله، وفي هذا إشارةٌ إلى رحمته ﷻ وسماحة هذا الدّين.

(1) كما جاء عند أبي زهرة، وهرة التفاسير: 6/3198 .
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3198.

دِلالَةُ حَذفِ مَفعولِ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾:

حَـذفُ المَعمولِ مُؤذِنٌ بِالعُمومِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وذَلِكَ قصدٌ لإرادةِ العمومِ؛ لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بذلك؛ والمَعنَى: يغفِرْ لَكُم ذنوبَكُم جميعًا.

بلاغةُ العطفِ بلفظ (الواو):

الإسلامُ أَعظَمُ سَبَبٍ لِتَحصيلِ المَغفِرَةِ

في عطفِ قوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ على قولِه سُبحانَهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ أسلوبُ تَرَقٍّ بذِكرِ الشَّيءِ، ثُمَّ تعقيبه بما هو أعظَمُ[1]؛ وذلك إذا كانَ المرادُ بـ ﴿خَيۡرٗا﴾ مِن قولِهِ تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا﴾: الخَلَفَ في الدُّنيا[2]، فيكونُ عطفُ المغفِرَةِ عليه تَرَقّيًا مِنَ الجزاءِ الدُّنيويِّ إلى الجزاءِ الأُخرَويِّ، وهو أعلى وأرقى.

وإن كانَ المرادُ بـ ﴿خَيۡرٗا﴾ الإسلامَ الّذي يُلقيهِ اللهُ ﷻ في قلوبِهِم، فيكونُ العَطفُ مِن عَطفِ المسبَّبِ على السَّبَبِ؛ إذِ الإسلامُ أَعظَمُ سببٍ لتحصيلِ المَغفِرةِ، ومَن فاتهُ الإسلامُ انتفَت عنه المَغفِرَةُ قطعًا.

دلالَةُ مجيءِ جوابِ الشّرط جملةً خبريّة:

ملمح حضّ الأسرى على الدُّخول في الإسلامِ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ جُملَةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جُملَةِ الشَّرطِ؛ أنَّه يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ.

وهذا الخبَرُ جارٍ على أصلِهِ في إفادَةِ المخاطَبينَ ما لا علمَ لَهُم بِهِ قَبلُ، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ فيه حضًّا وتحريضًا للأَسرى

(1) التَّرقّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُردَفَ بما هو أبلغُ مِنه. يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجُمان، ص: 135.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/261.

على الإيمانِ[1]، فهو بهذا الاعتبارِ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ. والمعنيانِ المذكوران لا تَنافيَ بينَهُما؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

سِرُّ اختيارِ المغفرةِ في ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالمغفرة في قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لأنّها تحملُ معنى السّترِ لكلِّ ما أسلفتموه من كفرٍ وجحودٍ وقتالٍ للمسلمين، وفي هذا تحريضٌ لهم على الإسلام؛ لأنّ اللّه ﷻ يمتنُّ عليهم بإعطائهم شيئًا غير قابلٍ للتّعويض، وهو المغفرةُ، وذلك من فضلِ اللّهِ ورحمتِه.

المغفرةُ كلُّها سترٌ، ورحمة، وغفران الله يشمل التّائبين برُمَّتهم

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾:

عبّرَ بالفعل المضارع الّذي يدلُّ على التّجدُّد والحدوثِ؛ فكلّما أحدثَ العبدُ ذنبًا أوجدَ اللّهُ له مغفرةً، هذا على العموم، ويدخلُ فيه أسرى بدرٍ على الخصوص إنْ هم ندموا على ما فعلوا من قتال المسلمين، ورضوا باللّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبسيّدنا محمّد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وفيه بشارةٌ بأنّ بابَ المغفرة مفتوحٌ لا يُغلَقُ حتّى تطلعَ الشّمس من مَغربِها.

مغفرةُ الله مُتجدِّدةٌ للعبد، بتجدُّد توبته للمعبود

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿لَكُمۡۚ﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿لَكُمۡۚ﴾ لمزيدٍ منَ العنايةِ والاختصاصِ بأسرى بدرٍ، وإن كانتِ المغفرةُ عامّة للكلِّ، إلّا أنّ اللّه أرادَ أن يُطيِّب خواطرَهم بهذا التّخصيص لينزعَ ما في قلوبِهم من غلٍّ وحقدٍ على المسلمين، وليُذهبَ القلقَ عنهم بما قدّموا من أفعالٍ سيِّئة.

التّخصيص دليلُ العنايةِ الإلهيّة، والرّعايةِ الرّبانيّة

نُكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظّاهرِ أن يَردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهو غفورٌ رحيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكرِ الاسمِ الأحسَنِ (اللّه) في قولِه: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾، وعُبِّر عنه سُبحانَهُ بعدَها بالضَّمائرِ، فلمّا جيءَ إلى هذا

تفخيمُ صِفَتَي المَغفِرَةِ والرَّحمَةِ، لعظمة الله وعزّته وجلاله

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3197.

المَوضِعِ أُظهِرَ ذلكَ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والنُّكتَةُ في ذلكَ: تعظيمُ شَأنِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ دَلَّ عليهما اسما اللهِ: الغَفورُ والرَّحيمُ؛ وهُما المغفِرَةُ والرَّحمةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وقدرُهما؛ إذ هُما صادِران ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بصيغَتَي (فعول) و(فعيل):

في بِناءِ اسمَي اللهِ تعالى (غَفورِ) و(رحيم) مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على صيغتي المبالغةِ دِلالَةٌ على قوَّةِ المغفرَةِ وسعَةِ الرَّحمَةِ وكثرَتِهما، فبناءُ المبالَغَةِ يقتضي قوّةَ المغفرةِ وكثرتَها، ومستَعمَلٌ باعتبار كثرَةِ المخاطَبينَ، وعِظَمِ المغفرَةِ والرَّحمَةِ باعتبارِ واحدٍ مِنهُم[1].

اللهُ ﷻ كَثيرُ المَغفِرَةِ، وعَظيمُ الرَّحمَةِ ممّا يشمل خلقه وكونه

بَلاغَةُ التَّذييلِ في آخرِ الآية:

جاءَ هذا التَّذييل للتّأكيدِ على صفةِ المغفرةِ بعدَ التّأسيس لها في قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وعلى أنّ هذا التّذييلَ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ وعَدَمِ افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ، وفيهِ إيماءٌ إلى عِظَمِ مغفرةِ اللهِ تعالى لَهُم؛ لأنّه كثيرُ الغفرانِ كثيرُ الرّحمةِ بعبادِهِ[2].

التَّأكيد على صفة المغفرة بعدَ التَّأسيس لها

سرُّ تقديمِ المغفرةِ على الرّحمةِ:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه قُدِّمَتِ المغفرةُ على الرّحمة؛ لأنّ المغفرةَ سلامةٌ والرّحمةَ غنيمةٌ، والسّلامةُ تُقدَّم على الغنيمة، وممّا يُذكَرُ في سرِّ تقديمِ المغفرةِ على الرّحمةِ أنّه من باب تقديم السَّبب على المُسبَّبِ؛ فإنّ المغفرةَ سببٌ في الرّحمة، وأيضًا لأنّ تقديمَ المغفرةِ على الرّحمةِ من بابِ تقديمِ التَّخلية على التَّحلية؛ فالمغفرةُ زوالُ المرهوبِ، والرّحمةُ تحصيلُ المطلوبِ.

زوالُ المَرهوبِ مُقدَّمٌ على تحصيل المطلوب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/81.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبيُّ والرَّسولُ:

الرّسولُ يؤسّسُ الدّعوةَ، والنّبيُّ يُجدِّدُها ويلتزم بها

في الفرقِ بين النَّبيِّ والرَّسولِ أقوالٌ كثيرَةٌ[1]، أصحُّها: أنَّ النَّبيَّ مَن أُوحِيَ إليه بشَرعٍ، وأُرسِلَ إلى قومٍ موافقينَ له، وهذا مُرادُ مَن قال: إنَّ النَّبيَّ يُوحَى إليهِ بشَرعِ مَن قَبلَهُ، فيكونُ مُجدِّدًا له، بخلاف الرَّسولِ فإنَّه مَن أُوحِيَ إليه بشَرعٍ، وأُرسِلَ إلى قومٍ مخالفينَ لَهُ[2].

وعلى هذا: فالنَّبيُّ مؤكِّدٌ، والرَّسولُ مؤسِّسٌ.

المَغفِرَةُ والرَّحمَةُ:

المغفرةُ طريقُ الرَّحمة، والرَّحمة سببٌ في المغفرة

الفَرقُ بينَهما مِن أَوجُهٍ: **أوَّلُها**: أنَّ أصلَ الغَفرِ في اللُّغَةِ: السَّترُ[3]، وأصلَ الرَّحمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطفُ[4]. **ثانيها**: أنَّ أحدَهما سببٌ في الآخَرِ، ومال ابنُ عَرفة إلى أنَّ الرَّحمةَ سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ يوجِبان عادةً سَترَ الزَّلَلِ[5]، إلّا أنَّ ظاهِرَ القرآنِ الكريم عكسُه؛ وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النّمل: 46]. **وثالثُها**: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَترِ ما مضى منَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلعِصمة منها فيما يُستقبَلُ[6] إذا كان ذلكَ جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاجَ إلى العصمةِ منها. ورابِعُها: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكروه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المَطلوب[7].

(1) مصطفى السُّليمانيّ، الجواهر السُّليمانيَّة، ص: 27 - 28.
(2) ابن تيميّة، النُّبوّات: 2/714 - 715.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435 - 2/258.
(6) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلّتها، ص: 19.
(7) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.

المَغفِرَةُ والعَفوُ:

العفوُ واقعٌ عند تركِ الواجبات، والمغفرةُ واقعةٌ عـنـد فـعـلِ المُحرَّمات

الفرقُ بينَهما مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ: أحدُها: أنَّ أصلَ الغَفرِ في لُغة العربِ: السَّترُ[1]، وأصلَ العَفوِ: المحوُ وتركُ الشَّيءِ[2].وثانيها: أنَّ الغالبَ استعمالُ العفوِ في تركِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فعل المحرَّماتِ[3].وثالثها: أنَّ أحدَهُما أبلغُ مِنَ الآخَرِ، وقد وقع خلافٌ في تَعيينِ الأبلَغِ مِنهُما على قولَينِ: أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ مِنَ المغفرة؛ لأنَّ المغفرةَ تُنبِئُ عَنِ السَّترِ، بخلاف العفو فإنَّه مُشعِرٌ بالمَحْوِ، والمحْوُ أبلغُ منَ السَّترِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.
(4) الصَّفّوريّ، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/88.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»